الملف صفر

— [0] —

رواية جرائم • تحقيق • غموض

تأليف

حمزة الحاج بيهي

إلى الذي لم أره،
لكنني رأيت أثره في كل شيء.

إلى الذي لم يتحدث باسمي،
ومع ذلك قال ما عجزُت عن قوله.

إلى من لم يطلب العدل من البشر،
فأخذ على عاتقه أن يحققه بطريقته.

إلى قريني...
الذي عرف الحقيقة قبلي.

الفصل الأول

الغرفة رقم ثلاثة عشر

[0]

كان الدم قد جفّ على حافة المكتب حين وصل المفتش رشيد بنعلي إلى المكان.

لم تكن هذه أول جثة يراها في حياته المهنية، لكنها كانت أول جثة يشعر أمامها بشيء غريب يتسلل إلى معدته قبل أن يصل إلى عقله.

وقف عند الباب لحظة، ينظر إلى الغرفة كما لو أنه يقرأ صفحة أولى من كتاب لا يعرف نهايته.

الغرفة رقم ثلاثة عشر، في الطابق الثاني من ثانوية "الأمل" الإعدادية، كانت مخصصة لحصص المعلوماتية. أجهزة الحاسوب مرصوصة في صفوف منتظمة، والشاشات كلها مطفأة إلا واحدة، تلك التي أمام الجثة مباشرة، وقد تركت مضاءة، تعرض شاشة سوداء عليها مؤشر وامض ينتظر أمرًا لن يأتي.

الأستاذ كريم الوزاني، أستاذ المعلوماتية، كان يجلس على كرسيه كأنه نائم، لولا الوضعية غير الطبيعية لرأسه، والدم الذي سال من صدغه الأيمن وتجمّد على ياقة قميصه.

"من وجده؟" سأل رشيد، دون أن يرفع عينيه عن الجثة.

"الحارس الليلي،" أجاب الشرطي الواقف عند الباب. "قال إنه رأى ضوءًا مضاءً في هذه الغرفة بعد منتصف الليل، رغم أن المدرسة كانت من المفترض أن تكون فارغة تمامًا."

رفع رشيد حاجبيه قليلاً. "بعد منتصف الليل؟ في يوم عطلة؟"

"نعم. لم يكن هناك أي حصة مبرمجة، ولا نشاط مدرشي."

اقترب رشيد من الجثة، وأخرج قفازين لاتكس من جيب معطفه وارتداهما ببطء، بحركة عرف منها زملاؤه أنه بدأ يفكر بجدية.

فحص الجرح أولاً. ضربة واحدة، دقيقة، في نقطة تكاد تكون محسوبة بدقة تشريحية. لم تكن ضربة عشوائية لشخص فقد أعصابه، بل ضربة من يعرف تمامًا أين يضرب.

"هل لمس أحد أي شيء في الغرفة؟" سأل.

"لا شيء، سيدي. كل شيء كما وجدناه."

استدار رشيد ببطء، يتفحص الغرفة بعينين لا تفوتهما التفاصيل. لاحظ أن الحاسوب الذي أمام الأستاذ كان الوحيد المفتوح. اقترب منه، ولمس الفأرة بحذر شديد باستخدام قلم من جيبه بدل إصبعه، فأضاءت الشاشة من سكون الشاشة إلى واجهة نظام التشغيل.

لم يكن هناك شيء غريب في الشاشة. مجلد فارغ على سطح المكتب، ومتصفح إنترنت مغلق.

"سيدي المفتش،" قال الشرطي الشاب الذي كان يقف بجانب النافذة، كاميرا المراقبة في الممر... هل نراجعها؟""

"بالطبع. هذا أول شيء يجب أن نراجعه."

نظر رشيد إلى ساعته. الرابعة والنصف فجرًا. كان يعلم أن الساعات القليلة القادمة ستحدد الكثير، وأن أول اثنتين وسبعين ساعة من أي تحقيق جريمة قتل هي الأهم على الإطلاق.

لكنه لم يكن يعلم، في تلك اللحظة، أن هذه الجريمة لن تكون الأخيرة، وأن السؤال الحقيقي لن يكون "من قتل الأستاذ كريم الوزاني؟"، بل سؤال أعمق بكثير، لن يكتشفه إلا بعد أن يفوت الأوان لتفاديه.

خرج رشيد من الغرفة وهو يفكر في تفصيل واحد لم يذكره لأحد بعد: الكرشي الذي كان يجلس عليه الأستاذ كان مديرًا نحو الباب، لا نحو الشاشة.

كأن أحدًا أدار الكرشي بعد الجريمة.

أو كأن الأستاذ كريم، في آخر لحظة من حياته، كان ينظر إلى شيء يدخل من ذلك الباب.

الفصل الثاني

الوجه في الممر

[0]

في غرفة المراقبة الصغيرة الملحقة بمكتب الحراسة، جلس رشيد أمام شاشة قديمة مع الحارس الليلي، رجل في الخمسينيات يدعى الحاج مبارك، ترتجف يداه قليلاً وهو يشغّل التسجيل.

"هنا،" قال الحاج مبارك، مشيرًا إلى الساعة المعروضة أسفل الشاشة: 23:47.

ظهر في الشريط ممر المدرسة، فارغ، مضاء بإنارة خافتة. مرت ثوانٍ دون حركة.

في الساعة 23:52، ظهر الأستاذ كريم الوزاني يمشي في الممر، بخطى عادية، يحمل حقيبته على كتفه. توقف أمام باب الغرفة رقم ثلاثة عشر، فتحه بمفتاحه الخاص، ودخل.

"لماذا كان هنا في هذا الوقت؟" سأل رشيد.

"لا أعرف، سيدي. لم يخبرني أحد بأنه سيأتي."

استمر رشيد في مراقبة الشريط. لم يحدث شيء لمدة تسع دقائق كاملة. ثم، في الساعة 00:01، لاحظ شيئاً جعله يجمد إصبعه فوق زر الإيقاف.

ظل خفيف، عند الطرف الأيسر من الشاشة، قرب باب السلم.

أرجع الشريط، وشغّله ببطء أكبر.

الظل لم يتحرك كما يتحرك الإنسان. لم يكن هناك خطوات، ولا صوت احتكاك بالأرض في التسجيل الصوتي الضعيف المرافق. فقط وجود، ثم غياب، في أقل من ثانية ونصف.

"هل رأيت هذا من قبل؟" سأل رشيد، محاولاً أن يبدو صوته هادئاً أكثر مما كان يشعر به فعلاً.

هزّ الحاج مبارك رأسه نفيًا، لكن عينيه لم تكذبا: كان قد رأى شيئاً يشبه هذا من قبل، ولم يكن يريد الحديث عنه.

لم يضغط رشيد عليه في تلك اللحظة. دوّن الملاحظة في دفتره الصغير، بخط واضح:

"ظل غير مفسّر، طرف الشاشة، بلا صوت خطوات. ربما – 00:01. عطل في الكاميرا. تحقق من الفني"

كتب "ربما عطل في الكاميرا"، لكنه لم يصدق ما كتب. كان رشيد بنعلي رجلاً لا يؤمن بالصدف، ولا بالتفسيرات السهلة. وكان يعلم أن هذا التفصيل الصغير سيبقى عالقًا في ذهنه لأيام قادمة.

الفصل الثالث

ياسين

[0]

في مكتب صغير بمركز الشرطة، كان الشاب ياسين العلوي يرتب الملفات على مكتبه حين دخل رشيد، ووجهه يحمل تلك النظرة التي تعلمّ ياسين خلال الأشهر الستة الماضية أنها تعني: "لدينا قضية، واستعد لليالٍ طويلة."

"جريمة قتل. أستاذ معلوماتية، ثانوية الأمل،" قال رشيد وهو يرمي بمعطفه على الكرشي. "أريدك أن تجمع لي كل شيء عن حياته: عائلته، علاقاته، زملاءه، تلاميذه القدامى، حتى لو كان الأمر يبدو تافهًا."

"حاضر، سيدي." فتح ياسين حاسوبه المحمول بسرعة. كان يحب هذا الجزء من العمل، البحث والتنقيب، أكثر مما يحب مواجهة مسرح الجريمة نفسه. تعلمّ من رشيد أن الحقيقة لا تكون دائمًا في مكان الجريمة، بل غالباً في التفاصيل الصغيرة التي تسبقها بسنوات.

"شيء آخر،" أضاف رشيد، وهو يجلس على حافة المكتب. "أريدك أن تسأل عن أي طالب قديم كان له مشكلة مع هذا الأستاذ. أي شيء. عقاب، توبيخ أمام الفصل، رسوب في مادته."

رفع ياسين عينيه. "تظن أن الأمر متعلق بأحد تلاميذه القدامى؟"

"لا أظن شيئاً بعد. لكن الطريقة التي قُتل بها هذا الرجل... كانت هادئة جدًا. منظمة جدًا. هذا لا يشبه غضباً عابرًا. هذا يشبه شخصًا كان ينتظر اللحظة المناسبة منذ زمن طويل."

ساد صمت قصير في المكتب.

"وهناك شيء آخر،" قال رشيد أخيرًا، بصوت أخفض. "في تسجيل كاميرا المراقبة... رأيت شيئاً لا أستطيع تفسيره بعد. لا أريد أن أذكره في التقرير الرسمي حتى أتأكد."

لم يسأل ياسين عن التفاصيل. كان يعرف أن رشيد بنعلي، الرجل الذي حلّ أكثر من ثلاثين قضية معقدة في مسيرته، لا يذكر شيئاً كهذا إلا إذا كان قد أزعجه فعلاً.

وفي تلك اللحظة، بدأ ملف كان سيصبح لاحقًا الأثقل في مسيرة المفتش رشيد بنعلي، دون أن يحمل بعد أي اسم.

لم يكن أحد يعلم، في تلك الليلة الباردة، أن هذا الملف سيُعرف يومًا بـ"الملف صفر".

الفصل الرابع

خيط رفيع

[0]

في اليـوم التـالي، جلس رشـيد بنعلي أمـام كومـة من الأوراق الـتي جمعهـا ياسين خلال ساعات قليلة: سجل الأستاذ كريم الوزاني المهـني، عقـود عملـه في ثلاث مؤسسـات مختلفـة خلال خمسـة عشـر عامًـا، وتقـارير تقـييم من إدارات متعاقبة تصفه بأنه "صارم، منظم، لا يتهاون في العقاب".

"صارم لهذه الدرجة؟" سأل رشيد وهو يقلبّ الأوراق.

"وجدت شكويين مسجلتين ضده منذ سنوات،" قال ياسين، يشير إلى ورقـتين موضوعتين على الجانب. "الأولى من ولي أمر تلميذ، يتهمه بالإهانة اللفظيـة أمام الفصل. والثانية... أغرب."

"كيف؟"

"مسحوبة. قُدّمت الشكوى ثم سُحبت بعـد أسـبوعين، دون أي تفسـير مسـجل في الملف."

أخذ رشيد الورقة الثانية وقرأ الاسم المذكور فيها بصمت. اسم عائلة عادية، لا يعني لـه شـيئاً في تلـك اللحظـة. لكنـه دوّنـه في دفـتره على أي حـال، تحت عنوان صغير كتبه بخط يده: "أسماء للمراجعة."

"أريد لائحة كاملة بتلاميذه على مدى السـنوات العشـر الأخـيرة على الأقـل،" قـال. "أعـرف أن هـذا يبـدو مبالغًـا فيـه، لكن هنـاك شـيئاً في طريقـة هـذه الجريمة يقول لي إن الجاني لم يكن غريبـاً عن الأسـتاذ كـريم. كـان يعرفـه. وربما منذ زمن بعيد."

نظر ياسـين إليـه للحظـة. "ألا تظن أننـا نتسـرع؟ ربمـا كـانت جريمـة سـرقة فشلت، أو خلاف شخصي عابر."

"لا شيء سُرق من الغرفة. المحفظة، الهاتف، الحاسوب المحمول... كل شيء في مكانـه." توقـف رشـيد قليلاً، ثم أضـاف بصـوت أهـدأ: "وهنـاك تفصـيل لم أذكره لك بعد. الكرشي الذي كان يجلس عليه كريم الوزاني كان مـديرًا نحـو البـاب لحظة العثور عليه. كأن شيئاً جعله يستدير قبل أن يموت."

"ربما استدار وهو يسمع صوتاً خلفه فقط."

"ربما،" قال رشيد، لكن نبرة صوته لم تكن نبرة رجل مقتنع.

الفصل الخامس

عادل

[0]

في نهاية اليوم نفسه، وفي شقة صغيرة على الطابق الثالث من عمارة قديمة في حي هادئ، كان شاب في الخامسة والعشرين يُدعى عادل بلحاج يجلس أمام حاسوبه، عيناه مثبتتان على الشاشة، لكن عقله كان في مكان آخر تمامًا.

كان قد سمع بالخبر منذ الصباح، مثل الجميع تقريباً: مقتل أستاذ في ثانوية الأمل. الخبر انتشر بسرعة في المدينة الصغيرة، وتناقلته الألسنة بتفاصيل متضاربة، بعضها صحيح وبعضها من نسج الخيال.

لم يشعر عادل بالحزن. ولم يشعر بالخوف أيضًا، رغم أنه كان يعرف تلك الثانوية جيدًا، وكان يعرف ذلك الاسم: كريم الوزاني.

شعر فقط بشيء غريب، صعب الوصف، يشبه إحساس من يستيقظ من حلم طويل ولا يتذكر منه إلا مشهدًا واحدًا مقتطعًا: باباً، وممرًا، وصوتاً خفيفًا يناديه من مكان لا يستطيع تحديده.

نهض من كرسيه، وذهب إلى المطبخ ليصب لنفسه كوباً من الماء. وبينما كان واقفًا هناك، لاحظ يده اليسرى ترتجف قليلاً، ارتجافًا خفيفًا لم يكن معتادًا عليه.

نظر إلى يده لثوانٍ، ثم إلى انعكاسه في نافذة المطبخ المظلمة.

للحظة، بدا له أن الانعكاس تأخر جزءًا من الثانية عن حركته.

هزّ رأسه، وابتسم لنفسه ابتسامة ساخرة. "أنت متعب فقط،" قال بصوت مسموع، كأنه يريد إقناع نفسه أكثر مما يريد إقناع أي أحد آخر.

لم يكن يعرف، في تلك اللحظة، أن هذا الإحساس الغريب سيتكرر، وأنه سيصبح مع الأيام القادمة أليفًا أكثر مما ينبغي لإحساس كهذا أن يكون.

وأنه لن يتذكر، مهما حاول، أين كان في الليلة التي قُتل فيها الأستاذ كريم الوزاني.

الفصل السادس

هالة

[0]

في بيت متواضع على أطراف الحي القديم، كانت امرأة في الستينيات تدُعى هالة تجلس بمفردها في غرفتها، تحدّق في كوب شاي بارد أمامها منذ ساعة كاملة دون أن تلمسه.

كانت قد شعرت بشيء منذ الليلة الماضية. شيء لا تستطيع تسميته، لكنها تعرفه جيدًا من قبل، ذلك الثقل الخفيف في الصدر، والبرودة المفاجئة التي تسري في أطراف أصابعها دون سبب ظاهر.

نهضت أخيرًا، واقتربت من نافذة غرفتها المطلة على الحي. الشمس كانت تغرب، ترسم ظلالاً طويلة على الجدران المقابلة.

"بدأ الأمر إذن،" همست لنفسها، بصوت لم يسمعه أحد.

لم توضح لنفسها ماذا تقصد بـ"الأمر". لكنها كانت تعرف، بيقين لا يقبل الجدل، أن حياة ابن أختها عادل - ذلك الشاب الذي كانت تراه طفلاً صغيرًا يلعب في هذا الحي نفسه قبل سنوات طويلة - كانت على وشك أن تتغير إلى الأبد.

وأنها هي، بما تحمله من سرّ لم تبح به لأحد طيلة أكثر من ثلاثين عامًا، ستكون جزءًا مما سيأتي.

سواء أرادت ذلك أم لا.

الفصل السابع

التقرير الأول

[0]

في صباح اليوم الثالث، وضع الطبيب الشرعي تقريره أمام رشيد بنعلي على طاولة مكتبه، وجلس مقابله ينتظر أسئلته المعتادة.

"سبب الوفاة نزيف داخلي في الجمجمة، ناتج عن ضربة واحدة بـأداة صـلبة، غير حادة،" قال الطبيب. "لكن هناك شيء يزعجني في هذا التقرير."

"ماذا؟"

"قوة الضربة. تحليل الأنسجة يشير إلى قوة هائلة، لا تتناسب مع ضربة عاديـة بيد بشرية، إلا إذا كان الجاني رياضيًا محترفًا أو يستخدم أداة ذات وزن كبـير جدًا. لكننا لم نجد أي أداة في مسرح الجريمة، ولا أي أثـر لجسـم غـريب في الجرح."

فتح رشيد التقرير وقرأ السـطر الـذي أشـار إليـه الطـبيب مـرتين. "تقصـد أن الضربة أقوى مما يمكن لإنسان عادي أن يوجهها؟"

"أقول فقط إن الفيزياء لا تتطابق تمامًا. ربما أخطأنا في القياس. هذه الأمـور تحدث أحياناً."

لم يقتنع رشيد بهذا التفسير، لكنه لم يعلقّ. أغلق التقريـر، وشـكر الطـبيب، وخرج إلى مكتب ياسين.

"لـدي شـيء لـك،" قـال ياسـين فـور دخولـه، وهـو يشـير إلى شاشـة حاسـوبه. "راجعت لائحة تلاميذ الأسـتاذ كـريم على مـدى اثنـتي عشـرة سـنة. معظمهم عاديون تمامًا. لكن اسمًا واحدًا تكرر ظهوره في ثلاث شكاوى مختلفة قـدمها أولياء أمور آخرون ضد الأستاذ كريم، بتهمة معاملته القاسية لتلميذ بعينه."

"من؟"

أشار ياسين إلى الشاشة. "عادل بلحـاج. كـان تلميـذًا في هـذه المدرسـة قبـل نحو اثنتي عشرة سنة."

كتب رشيد الاسم في دفتره، إلى جانب الاسم الذي دوّنه سـابقًا تحت عنـوان "أسماء للمراجعة"، ثم توقف فجأة، وقارن بين الاسمين.

كانا الاسم نفسه.

الفصل الثامن

زيارة أولى

[0]

لم يكن عادل بلحاج يتوقع أن يطرق أحد بابه ذلك المساء، وأقل ما توقعه هو أن يكون الطارق مفتشًا في الشرطة.

"السيد عادل بلحاج؟" سأل رشيد، وهو يقف عند الباب مع ياسين خلفه.

"نعم... هل هناك مشكلة؟"

"نود طرح بعض الأسئلة عليك، إذا سمحت وقتك."

جلس الثلاثة في صالة صغيرة متواضعة. لاحظ رشيد، بعينه المدربة على التقاط أدق التفاصيل، أن يدي عادل كانتا متشابكتين بإحكام أكثر من اللازم، وأن نظراته كانت تتجنب الاستقرار في مكان واحد.

"هل تعرف الأستاذ كريم الوزاني؟" سأل رشيد مباشرة.

توقف عادل للحظة قصيرة، بدت لرشيد أطول قليلاً مما ينبغي. "كان أستاذي في المعلوماتية، منذ سنوات طويلة. سمعت بما حدث له. أمر مروّع."

"أين كنت ليلة أمس، بين الحادية عشرة مساءً والواحدة صباحًا؟"

"هنا. في شقتي. كنت أعمل على مشروع برمجي." توقف قليلاً، ثم أضاف: "بمفردي، لسوء الحظ. لا يوجد من يشهد لي."

كتب رشيد الملاحظة دون أن يعلّق. "أخبرنا، من فضلك، عن علاقتك بالأستاذ كريم أيام دراستك."

نظر عادل إلى الأرض للحظة، وكأنه يبحث عن كلمات مناسبة. "لم تكن علاقة سهلة. كان أستاذًا صارمًا جدًا، ربما أكثر مما ينبغي. كان يعاقبني أمام الفصل أحياناً لأسباب تافهة. لكن هذا كان منذ زمن طويل. لم أعد أفكر في الأمر."

"ألم تعد تفكر فيه؟" سأل رشيد بهدوء، لكن بنبرة لا تخفي شكه.

"لا،" أجاب عادل بسرعة، ربما أسرع مما ينبغي.

بعد أن غادر رشيد وياسين الشقة، وقف عادل عند الباب لدقائق طويلة، يشعر بشيء يثقل صدره. لم يكن يكذب حين قال إنه لا يتذكر تفاصيل تلك الليلة بوضوح تام. كان قد نام مبكرًا، كما كان يفعل دائمًا. لكن هناك فجوة صغيرة، لا تتجاوز الساعة، بين لحظة نومه ولحظة استيقاظه المفاجئ في منتصف الليل، متعرقًا، وشعوره الغريب بأن يديه كانتا باردتين جدًا.

فجوة صغيرة جدًا، لم يكن قد انتبه إليها من قبل.

حتى الآن.

الفصل التاسع

الرمز الأول

[0]

بعد أربعة أيام من الجريمة الأولى، تلقى مركز الشرطة اتصالاً من مالك محل تجاري صغير قرب الثانوية، يبلغ عن "شيء غريب" وجده عند بابه في الصباح.

وصل رشيد وياسين إلى المكان خلال نصف ساعة. على الحائط الجانبي للمحل، بخط أسود غامق، رُسم رمز صغير لم يتجاوز حجمه كف اليد:

☣

لم يكن هناك أي كتابة أخرى، ولا أي توقيع، ولا أي أثر واضح يدل على من رسمه أو متى بالضبط.

"ربما مجرد شغب من مراهقين،" قال ياسين، وهو يصور الرمز بهاتفه.

"ربما،" قال رشيد، لكنه اقترب أكثر، يتفحص خطوط الرمز بدقة. كان هناك شيء في طريقة رسمه يوحي بعناية غير عادية، وكأن اليد التي رسمته لم تكن يد شخص يخربش عشوائيًا، بل يد تعرف بالضبط ما تريد رسمه.

سأل صاحب المحل: "متى لاحظت هذا؟"

"هذا الصباح، عند فتح المحل. لم يكن موجودًا البارحة، أنا متأكد."

"وكاميرات المراقبة؟"

هزّ الرجل رأسه أسفًا. "معطلة منذ أسبوعين. لم أصلحها بعد."

دوّن رشيد الملاحظة، والتقط صورة إضافية للرمز بهاتفه الخاص، وأرسلها إلى قسم الأدلة الجنائية لتحليلها، رغم أنه لم يكن يتوقع منها الكثير.

لم يكن يعرف أن هذا الرمز، الذي بدا له في تلك اللحظة مجرد تفصيل هامشي في قضية معقدة، سيصبح الخيط الذي سيربط بين كل شيء لاحقًا.

ولم يكن يعرف أيضًا أن المحل الذي رُسم عليه هذا الرمز يقع على بعد مئتي متر بالضبط من المنزل الذي كان يسكنه عادل بلحاج في طفولته، قبل أن تنتقل عائلته إلى حي آخر.

تفصيل صغير، لن يكتشفه أحد إلا بعد أشهر طويلة.

الفصل العاشر

الليلة الثانية

[0]

مرّ أسبوعان دون أي تطور يُذكر. بـدأ بعض أفـراد فريـق التحقيـق يتحـدثون عن احتمال أن تكون الجريمة حادثة معزولة، ربما انتقامًا شخصيًا لن يتكرر. لكن رشيد بنعلي لم يشعر بذلك الاطمئنان الذي شعر به زملاؤه.

كان يعرف، من تجربته الطويلة، أن الجرائم "المنظمة جدًا" نـادرًا مـا تكـون معزولة.

في الليلـة الثالثـة عشـرة بعـد جريمـة الأسـتاذ كـريم، تلقى رشـيد اتصـالاً في الساعة الثانية فجرًا.

جثة أخرى. هذه المرة في محل صـغير لـبيع الهواتـف المسـتعملة وإصـلاحها، يملكه رجل يدعى سمير قاسمي.

وصل رشيد إلى المكان ليجد المشهد شبيهًا بـالأول من نـواحٍ، ومختلفًـا تمامًـا من نواحٍ أخرى. سمير كان يجلس خلف طاولته، برأس مائل بالطريقة نفسها تقريباً، وضربة واحدة في الموضع نفسه من الجمجمة.

لكن هذه المرة، كان هناك تفصيل إضافي: على الحائط خلف الجثة، رُسم الرمز نفسه الذي رآه رشيد قبل أسبوعين.

☣

هذه المرة بالدم.

"هذا يغيّر كل شيء،" قال ياسين، واقفًا خلف رشيد، ووجهه شاحب قليلاً.

"نعم،" قال رشيد بهدوء ثقيل. "هذا لم يعد جريمة واحدة."

الفصل الحادي عشر

سمير قاسمي

[0]

بعد ساعات من الفحص الأولي، بدأ رشيد يجمع المعلومات عن الضحية الثانية. سمير قاسمي، أربعون عامًا، لا علاقة ظاهرة له بالتعليم أو بالأستاذ كريم الوزاني. سجله نظيف تمامًا، لا شكاوى، لا خصومات معروفة.

على السطح، لم يكن هناك أي رابط بين الضحيتين.

لكن رشيد لم يكتفِ بالسطح أبدًا.

طلب من ياسين البحث في كل تفصيل ممكن عن حياة سمير قاسمي، مهما بدا بعيدًا: أين درس، أين عمل قبل فتح محله، من كان يعرفه في شبابه.

بعد يوم كامل من البحث، وجد ياسين خيطًا رفيعًا: سمير قاسمي كان، قبل خمس عشرة سنة، حارسًا ليليًا في ثانوية "الأمل" نفسها، لمدة سنتين فقط، قبل أن يترك العمل ويفتح محله الخاص.

"كان يعمل في المدرسة نفسها؟" قال رشيد، وهو يشعر بشيء يتحرك في مكانه، كقطعة أحجية بدأت أخيرًا تجد موضعها. "في أي سنوات بالضبط؟"

راجع ياسين الوثائق. "من سنة إلى سنتين، تقريباً في الفترة نفسها التي كان فيها عادل بلحاج تلميذًا في تلك المدرسة."

نظر رشيد إلى النافذة صامتًا لبرهة طويلة.

"أريد استجواب عادل بلحاج مرة أخرى،" قال أخيرًا. "لكن هذه المرة، بشكل أكثر جدية."

الفصل الثاني عشر

ما لا يتذكره عادل

[0]

جلس عادل بلحاج في غرفة الاستجواب، بإضاءتها الباردة وطاولتها المعدنية، يشعر بضغط لم يشعر به من قبل في حياته.

"هل تعرف سمير قاسمي؟" سأل رشيد، ووضع صورة الضحية الثانية أمامه.

نظر عادل إلى الصورة طويلاً. الوجه بدا مألوفًا، لكن بشكل غامض، كذكرى قديمة تختبئ خلف ضباب كثيف.

"أظن... أظن أنني رأيته من قبل. ربما كان يعمل حارسًا في مدرستي القديمة. لكنني لست متأكدًا تمامًا."

"أين كنت الليلة قبل الماضية، بين منتصف الليل والثانية فجرًا؟"

توقف عادل. حاول أن يتذكر، وشعر بذلك الفراغ نفسه الذي شعر به بعد الجريمة الأولى، تلك الفجوة الصغيرة التي بدأت تكبر شيئاً فشيئاً في ذاكرته.

"كنت نائمًا،" قال أخيرًا، لكن صوته لم يكن مقنعًا حتى لنفسه.

"وحدك؟"

"وحدي. دائمًا وحدي."

ساد صمت ثقيل في الغرفة. راقب رشيد وجه الشاب الجالس أمامه بدقة شديدة. لم ير في عينيه ذلك البريق الذي يميز الكاذبين المحترفين. رأى شيئاً آخر، أكثر إرباكاً: خوفًا حقيقيًا، لكنه خوف من شيء لا يفهمه عادل نفسه.

"هل تعاني من مشاكل في النوم؟" سأل رشيد فجأة، بنبرة أهدأ.

رفع عادل عينيه بمفاجأة. "كيف عرفت؟"

"لم أعرف. لكنني الآن أعرف."

خرج عادل من مركز الشرطة في وقت متأخر من الليل، دون أن يُتهم رسميًا بأي شيء، لكن بشعور ثقيل يجثم على صدره. وبينما كان يمشي في الشارع الفارغ نحو منزله، سمع صوتاً خفيفًا، كأنه همسة، تأتي من مكان لا يستطيع تحديده.

كلمة واحدة، غير مفهومة تمامًا، لكنها بدت له مألوفة بطريقة مرعبة.

توقف في مكانه، ونظر حوله. الشارع كان فارغًا تمامًا.

لم يخبر أحدًا بما سمعه تلك الليلة. حتى نفسه لم يصدق ما سمعه.

الفصل الثالث عشر

عين الصحافة

[0]

بحلول اليوم العشرين بعد الجريمة الثانية، كانت وسائل الإعلام المحلية قد بدأت تتحدث عن "جريمتين غامضتين" في المدينة، دون أن تربط بينهما رسميًا بعد. لكن صحفيًا شاباً يدعى يونس الفاشي، يعمل في جريدة إلكترونية محلية، كان قد لاحظ التشابه بنفسه.

اتصل يونس بمصدر له داخل مركز الشرطة، وحصل على معلومة واحدة كافية لإشعال فضوله: كلتا الجريمتين تحملان الرمز نفسه.

لم ينشر يونس شيئاً بعد. لم يكن يملك أدلة كافية، وكان يعرف أن نشر معلومة خاطئة قد يدمر مصداقيته. لكنه بدأ، بهدوء، ببناء ملف خاص به، يجمع فيه كل تفصيل يستطيع الوصول إليه.

في تلك الأثناء، وفي مركز الشرطة، كان رشيد بنعلي يقف أمام لوحة بيضاء كبيرة، عليها صور الضحيتين، وخطوط تربط بينهما وبين عادل بلحاج، وبينهما وبين المدرسة، وبينهما وبين الرمز الغامض.

"لا يزال هناك شيء ناقص،" قال رشيد لياسين. "لدينا رابط بين الضحيتين والمدرسة. لدينا شخص واحد يمكن أن يكون نقطة التقاطع. لكن لا يوجد دليل قاطع، ولا دافع واضح لماذا الآن، بعد كل هذه السنوات."

"ربما الدافع نفسه هو ما يجب أن نبحث عنه في ماضي عادل،" قال ياسين.

"بالضبط. أريدك أن تحفر أعمق. طفولته، عائلته، أي حادثة قد تكون وقعت قبل مغادرته تلك المدرسة."

الفصل الرابع عشر

هالة تتحدث

[0]

قررت هالة، بعد أيام من التردد، أن تزور ابن أختها عادل. لم تكن قد رأته منذ أشهر، ولاحظت منذ اللحظة الأولى التي فتح فيها الباب أن شيئاً في عينيه قد تغيّر.

"أنت متعب،" قالت وهي تدخل الشقة. "لا تنم جيدًا، أليس كذلك؟"

"كيف عرفتِ؟" سأل عادل، محاولاً الابتسام دون جدوى.

جلست هالة على الأريكة، وطلبت منه أن يجلس بجانبها. "عادل، أريد أن أسألك سؤالاً، وأريدك أن تجيب بصدق تام. هل تشعر، منذ فترة، أن هناك من يراقبك؟ أو أن هناك... جزءًا منك لا تعرفه جيدًا؟"

نظر إليها عادل بذهول. لم يخبر أحدًا بما كان يشعر به، لا حتى في أقرب لحظات صدقه مع نفسه.

"كيف تعرفين هذه الأشياء يا خالتي؟"

ابتسمت هالة ابتسامة حزينة، لم تحمل أي فرح فيها. "لأنني أعرف أشياء كثيرة، عن عائلتنا، وعن أشياء أخرى، لم يحن الوقت بعد لأخبرك بها. لكن أريدك أن تعرف شيئاً واحدًا الآن: مهما شعرت بغرابة، ومهما بدت لك الأمور غير منطقية، لست وحدك في هذا. وحين يحين الوقت، سأخبرك بكل شيء."

"متى سيحين هذا الوقت؟"

نظرت هالة إلى النافذة، وكأنها ترى شيئاً بعيدًا لا يستطيع عادل رؤيته. أخشى أنه اقترب أكثر مما كنت أتمنى"."

غادرت هالة تلك الليلة دون أن تجيب على المزيد من أسئلته، تاركة عادل في حالة من القلق أعمق مما كان عليه قبل زيارتها.

الفصل الخامس عشر

الشيخ الطاهر

[0]

في حي آخر من المدينة، كان رجل يُعرف بين الناس باسم "الشيخ الطاهر" يستقبل زواره كعادته كل مساء، في بيت بسيط لكنه مزدحم دائمًا بمن يطلبون البركة، أو الشفاء، أو حلاً لمشكلة عائلية معقدة.

كان الشيخ الطاهر رجلاً في الستينيات، لحيته بيضاء مشذبة بعناية، وصوته هادئ ومطمئن، يتحدث عن الإيمان والصبر بطريقة تجعل كل من يستمع إليه يشعر بالسكينة.

لكن خلف هذا الهدوء المصطنع، كان هناك رجل يعرف أشياء لا يعرفها أحد من زواره.

بعد أن غادر آخر زائر ذلك المساء، أغلق الشيخ الطاهر الباب خلفه، ونزع تلك الابتسامة اللطيفة التي كان يرتديها كقناع طوال اليوم. جلس في غرفته الخاصة، أضاء شمعة واحدة، وأخرج من درج مغلق دفترًا قديمًا جدًا، جلده متآكل، وصفحاته صفراء تنبض بعمر لا يمكن تخمينه بسهولة.

فتح الدفتر على صفحة معينة، بها اسم واحد مكتوب بخط قديم: هالة.

"لا يزال الوقت لم يحن بعد،" همس لنفسه، بصوت مختلف تمامًا عن صوته المعتاد أمام الناس. "لكنه اقترب. أشعر به يقترب."

أغلق الدفتر، وأطفأ الشمعة، وابتسم في الظلام ابتسامة لم يرها أحد، ابتسامة لا علاقة لها بالطيبة أو الإيمان الذي يدّعيه أمام الناس كل يوم.

الفصل السادس عشر

طفولة عادل

[0]

بدأ ياسين، بتوجيه من رشيد، بالتنقيب في الماضي البعيد لعادل بلحاج. لم يكن الأمر سهلاً؛ فسجلات المدرسة القديمة لم تكن كاملة، وبعض الأساتذة الذين درّسوه قد تقاعدوا أو انتقلوا إلى مدن أخرى.

لكن ياسين وجد شيئاً مثيرًا للاهتمام في سجل غياب قديم: عادل بلحاج تغيّب عن المدرسة لمدة ثلاثة أسابيع كاملة في السنة الأخيرة من دراسته الإعدادية، دون أي شهادة طبية مرفقة بالملف، فقط ملاحظة مقتضبة كتبها أحد الإداريين: "ظروف عائلية."

سأل ياسين عن سبب هذا الغياب أحد الأساتذة المتقاعدين الذين قبلوا الحديث معه.

"أتذكر تلك الفترة،" قال الأستاذ العجوز، وهو يحرك كوب الشاي أمامه ببطء. "كان هناك حادث في عائلته. لم يتحدث أحد عنه بوضوح، لكن الإشاعات قالت إن والده اختفى فجأة، ولم يعد أحد يعرف مكانه."

"اختفى؟" سأل ياسين، منتبهًا فجأة. "هل بحثت الشرطة عنه وقتها؟"

"لا أعرف بالتفصيل. كان الأمر يبدو وكأن العائلة نفسها لم تكن تريد أن يُبحث عن الأمر كثيرًا."

عاد ياسين إلى المكتب بهذه المعلومة، ووجد رشيد ينتظره بفارغ الصبر.

"والد عادل بلحاج اختفى قبل اثنتي عشرة سنة، في الفترة نفسها التي غاب فيها عادل عن المدرسة لثلاثة أسابيع،" قال ياسين. "ولم يُفتح أي تحقيق رسمي في اختفائه."

نظر رشيد إلى الأسماء المكتوبة على لوحته البيضاء، وأضاف اسمًا جديدًا، بخط دائرة حوله بقوة: "الأب - مختفٍ."

"هذا ليس تفصيلاً هامشيًا،" قال بصوت منخفض. "هذا قد يكون جذر كل شيء."

الفصل السابع عشر

التنمّر

[0]

لم يكن يعلم رشيد بعد أن هناك جزءًا آخر من قصة عادل، لم يظهر في أي سجل رسمي، لأنه لم يكن نوع الأمور التي تُسَجِّل في الأوراق.

في تلك السنوات، كان هناك ثلاثة تلاميذ في المدرسة نفسها، يكبرون عادل بسنة أو سنتين، اعتادوا استهدافه بشكل شبه يومي. لم يكن الأمر عنفًا جسديًا فادحًا، بل شيئاً أخبث: سخرية مستمرة من طريقة كلامه، وإخفاء أغراضه، وإطلاق لقب مهين عليه ظل يلاحقه طوال سنوات دراسته.

الأستاذ كريم الوزاني، الذي كان يشرف أحياناً على المراقبة في الاستراحة، كان قد رأى هذا يحدث أكثر من مرة، ولم يتدخل قط. بل إن بعض الشهود القدامى، حين تحدث إليهم ياسين لاحقًا، ذكروا أن الأستاذ كريم كان يضحك أحياناً مع أولئك التلاميذ على حساب عادل، معتبرًا الأمر "مزاحًا بريئاً بين الأطفال."

لم يكن هذا التفصيل قد وصل إلى رشيد بعد. لكنه كـان ينتظـر، مطمـورًا في ذاكرة عادل، مثل جرح قديم لم يُشفَ يومًا، بل غُطّي فقط بطبقـة رقيقـة من النسيان المتعمد.

الفصل الثامن عشر

الليلة الثالثة

[0]

مرّ شهر كامل دون أي جريمة جديدة، بدأ خلاله بعض أفراد الرأي العام يظنون أن الأمر انتهى. لكن رشيد بنعلي، الذي لم يهدأ يومًا واحدًا خلال هذا الشهر، كان يعرف أن الهدوء أحياناً هو أخطر علامات العاصفة القادمة.

في الليلة التي تلت الذكرى الشهرية الأولى لجريمة الأستاذ كريم بالضبط، وقعت الجريمة الثالثة.

الضحية هذه المرة كانت امرأة، إدارية سابقة في ثانوية الأمل، تدُعى نادية شرقاوي، عُثر عليها في منزلها، بالطريقة نفسها تمامًا: ضربة واحدة، رمز الدم على الحائط، ولا أي أثر لاقتحام أو مقاومة.

لكن هذه المرة، كان هناك شيء إضافي أثار قلق فريق التحقيق بأكمله: كاميرا مراقبة قريبة من منزل نادية شرقاوي التقطت، في الثانية التي سبقت انقطاع البث فجأة لمدة سبع ثوانٍ كاملة، ما بدا وكأنه شكل بشري يقف عند الباب.

لكن حين عاد البث، كان الباب مغلقًا كما كان، ولم يظهر أي أحد يـدخل أو يخرج.

جلس رشيد أمام تلك اللقطة عشرات المرات تلك الليلة، يعيد تشـغيلها ببطء شديد، لقطة بلقطة.

لم يكن هناك تفسير منطقي لما رآه.

وفي صباح اليوم التالي، ولأول مـرة، اسـتخدمت إحـدى القنـوات التلفزيونيـة المحلية، في نشرتها الصباحية، عبارة ستلتصق بهذه القضية إلى الأبد:

"يبدو أن مدينتنا تواجه الآن ما بدأ الناس يطلقون عليه: الشبح."

الفصل التاسع عشر

اسم لا يريده أحد

[0]

انتشر اسم "الشبح" بسرعة مذهلة عبر المدينة، من نشرة تلفزيونية واحدة إلى كل لسان تقريباً خلال أيام قليلة. لم يكن رشيد بنعلي سعيدًا بهذا التطور على الإطلاق.

"هذا الاسم سيجعل الناس يخافون أكثر مما ينبغي، وسيدفع الجاني، أيًا كان، إلى الشعور بأهمية إضافية،" قال في اجتماع الفريق صباح ذلك اليوم. "أريد بياناً رسميًا يوضح أننا لا نستخدم هذه التسمية، وأن التحقيق يسير بمنهجية علمية دقيقة."

لكن الاسم كان قد ترسّخ بالفعل. حتى بعض ضباط الشرطة أنفسهم بدأوا يستخدمونه في أحاديثهم الجانبية، رغم التعليمات الرسمية.

في مكتبه الصغير، جلس الصحفي يونس الفاشي أمام حاسوبه، يكتب مقالته الأولى عن القضية، بعد أن جمع ما يكفي من المعلومات المؤكدة لينشرها دون خوف من الملاحقة القانونية. لم يذكر اسم عادل بلحاج، لأنه لم يكن يملك دليلاً كافيًا يربطه بالجرائم بشكل مباشر. لكنه أشار، بحذر شديد، إلى

أن "مصادر مقربة من التحقيق تؤكد وجود رابط بين الضحايا الثلاث وثانوية واحدة في المدينة."

نشُر المقال في الصباح التالي، وأثار ضجة كبيرة. اتصل مدير الشرطة برشيد فور قراءته، غاضباً من التسريب.

"أريد معرفة من تحدّث إلى هذا الصحفي،" قال المدير بحدة.

"سأتكفل بالأمر،" أجاب رشيد، لكن عقله كان في مكان آخر تمامًا. كان يفكر في أن يونس الفاشي، رغم إزعاجه، ربما يكون قد لاحظ شيئاً مفيدًا لم يلاحظه فريقه بعد.

الفصل العشرون

لقاء مع الصحفي

[0]

قرر رشيد، خلافًا للبروتوكول المعتاد، أن يلتقي يونس الفاشي شخصيًا، في مقهى هادئ بعيدًا عن مركز الشرطة.

"لن أعطيك أي معلومة جديدة،" قال رشيد بمجرد جلوسه. "لكنني أريد أن أعرف كيف وصلت إلى ما نشرته."

ابتسم يونس بثقة هادئة. "لدي مصادري الخاصة، سيدي المفتش. لكن يمكنني أن أخبرك بشيء لن تجده في أي تقرير رسمي: لاحظت أن كل الضحايا الثلاثة كانوا في مكان واحد، في وقت واحد تقريباً، قبل اثنتي عشرة سنة. ثانوية الأمل. وكل واحد منهم كان بطريقة أو بأخرى مرتبطًا بحادثة واحدة لم يتحدث عنها أحد بوضوح."

"أي حادثة؟"

"هذا ما لا أعرفه بعد. لكنني أعرف أن هناك تلميذًا واحدًا في تلك المدرسة، في تلك السنوات بالضبط، كان محور الكثير من الأحاديث الجانبية. لم أستطع تأكيد اسمه بعد."

شعر رشيد بتوتر خفيف. لم يكن يريد أن يتسرب اسم عادل بلحاج إلى الصحافة قبل أن يكون لديه دليل قاطع.

"إذا وصلت إلى هذا الاسم،" قال رشيد بجدية، "أطلب منك ألا تنشره. ليس بعد. قد تدمّر حياة شخص بريء، أو تدفع الجاني الحقيقي إلى الاختفاء تمامًا."

نظر يونس إليه طويلاً، ثم أومأ برأسه ببطء. "اتفقنا. لكن بالمقابل، أريد أن أكون أول من يعرف الحقيقة الكاملة حين تكُشف."

"إذا وصلنا إلى تلك الحقيقة،" قال رشيد، "ستكون أول من يعرفها. أعدك."

الفصل الحادي والعشرون

كابوس متكرر

[0]

في تلك الليلة، استيقظ عادل بلحاج فجأة، متصببّاً عرقًا، من كابوس بدأ يتكرر منذ أسابيع بنفس التفاصيل تقريباً.

في الحلم، كان يقف في ممر طويل مظلم، يشبه ممرات مدرسته القديمة، لكنه أطول بكثير مما تسمح به الهندسة الطبيعية لأي مبنى. في نهاية الممر، كان هناك باب، وخلف الباب صوت يناديه باسم لم يسمعه من قبل، ليس اسمه "عادل"، بل اسمًا آخر، غريباً، لكنه بطريقة ما مألوف بعمق يفوق أي منطق.

في كل مرة يقترب فيها من الباب في الحلم، يستيقظ فجأة، قبل أن يتمكن من فتحه.

هذه المرة، شعر بشيء إضافي: إحساسًا بأن هناك من كان يقف خلفه في الممر، طوال الوقت، دون أن يراه.

نهض من فراشه، وذهب إلى الحمام ليغسل وجهه. حين رفع نظره إلى المرآة، توقف قلبه للحظة.

لم يكن هنـاك شـيء غـير طـبيعي في انعكاسـه. كـان هـو نفسـه، بعينيـه المتعبتين وشعره المشعث.

لكنه كان متأكدًا، بيقين لا يستطيع تفسيره، أن شيئاً خلف تلك العينين كـان يراقبه، من الداخل.

الفصل الثاني والعشرون

عائلة بلحاج

[0]

بـدأ ياسـين، بـأمر مباشـر من رشـيد، بـالتنقيب بعمـق أكـبر في تـاريخ عائلـة بلحاج. اكتشف أن جد عـادل، من جهـة والـده، كـان معروفًـا في القريـة الـتي نشأت فيها العائلة قبل انتقالها إلى المدينـة، بلقب غـريب: "الرجـل الـذي لا ينام."

سافر ياسين شخصـيًا إلى تلـك القريـة الصـغيرة، والتقى بـامرأة عجـوز كـانت جارة قديمة لعائلة بلحاج.

"كان جد عادل رجلاً غريب الأطوار،" قالت العجوز، وهي تقـدم لـه كوبـاً من الشاي بالنعناع. "كان الناس يتجنبون بيته بعد غروب الشمس. يقولون إنهم كانوا يسمعون أصواتاً تأتي من داخله، حتى حين يكون وحده تمامًا."

"أي نوع من الأصوات؟"

"أصوات محادثة. كأن هناك شخصين يتحدثان. لكن لم يكن يزوره أحد أبدًا."

سأل ياسين عن مصير هذا الجد. أجابت العجوز بأنه اختفى فجأة، ذات ليلـة، قبل أكثر من أربعين عامًا، ولم يُعثر له على أثر منذ ذلك الحين.

"اختفى، تمامًا كابنه لاحقًا؟" فكرّ ياسين بصوت مسموع.

هزّت العجوز رأسها موافقة، بنظرة قلقة. "هذه العائلة تحمـل شـيئاً غريبـاً يـا بني. لا أعرف ما هو بالضبط. لكنني أعرف أنه ينتقل من جيل إلى جيل."

عاد ياسين إلى المدينة بهذه المعلومة، شاعرًا للمرة الأولى منذ بدايـة القضـية بأن هناك طبقة كاملة من الحقيقة لم يقترب منها أحد بعد، طبقة أقدم بكثير من الجرائم الثلاث، وأعمق من أي تفسير جنائي عادي.

الفصل الثالث والعشرون

هالة تقرر

[0]

"بعد أن سمعت هالة بخبر الجريمة الثالثة، وبعد أن رأت اسم "الشبح يـتردد في كل مكان، قررت أخـيرًا أن الـوقت قـد حـان لفعـل شـيء لم تفعلـه منـذ سنوات طويلة.

أغلقت بـاب غرفتهـا، وأشـعلت شـمعتين صـغيرتين وضـعتهما أمامهـا على الأرض، وأخرجت من صندوق خشبي قديم قطعة قماش مطرزة برمـوز باهتـة، توارثتها عن أمها قبل أن تموت.

جلست أمام القطعة، أغمضت عينيها، وبدأت تتمتم بكلمات بلغة لم يسمعها أحد من قبل، ليست عربية، ولا أي لغة معروفة، لكنها كانت تخرج من فمهـا بسلاسة كأنها لغتها الأم.

بعد دقائق طويلة من الصمت التـام، شـعرت بشيء يتحـرك في الهـواء أمامهـا، برودة خفيفة تسري في الغرفة رغم إغلاق كل النوافذ.

فتحت عينيها ببطء، ونظرت إلى الفراغ أمامها مباشرة، كأنها تخاطب شخصًا واقفًا هناك، رغم أن الغرفة كانت فارغة تمامًا لأي عين أخرى.

"أعرف أنك هناك،" همست بصوت هادئ. "وأعرف أنك تعرف ما يحدث لابن أختي. أحتاج مساعدتك، ولو لمرة أخيرة."

لم يجب أحد. لكن الشمعتين، في تلك اللحظة بالذات، انطفأتا معًا، دفعة واحدة، دون أي نسمة هواء تفسّر ذلك.

ابتسمت هالة ابتسامة خفيفة، مليئة بمزيج من الحزن والارتياح.

"شكرًا لك،" قالت في الظلام. "كنت أعرف أنك ستستمع."

الفصل الرابع والعشرون

القرين

[0]

في اليـوم التـالي، عـادت هالـة إلى بيت عـادل، لكن هـذه المـرة لم تـأتِ للحديث العابر. جلست أمامه بجدية لم يرها فيها من قبل.

"عادل، حان الـوقت لأخـبرك بشيء كـان يجب أن تعرفـه منـذ زمن طويـل،" بـدأت. "كـل إنسـان يولـد ومعـه شـيء يرافقـه طـوال حياتـه، كيـان لـه وعيـه الخاص، وإرادته الخاصة، يُدعى في عائلتنـا: القـرين. ليس شـيطاناً كمـا يظن الناس، وليس مجرد خيال. إنه حقيقي، وله شخصية مستقلة تمامًا عنك."

نظر إليها عادل بذهول ممزوج بريبة. "تقصدين... أن لدي شيئاً كهذا؟"

"نعم. ولدت به، مثل والدك، ومثل جدك من قبله. لكن قرينك، عادل، انفصل عنك. منذ سنوات."

"انفصل؟ كيف يُعقل ذلك؟"

توقفت هالة، وكأنها تزن كلماتها بدقة شديدة. "هناك رجل يعرف أشياء لا ينبغي له أن يعرفها. استطاع، بطريقة ما، أن يفصل قرينك عنك حين كنت لا تزال طفلاً، بعد تلك الحادثة التي حدثت لوالدك. وأخذه ليستخدمه."

شعر عادل بالأرض تهتز تحته. "لماذا لم تخبريني بهذا من قبل؟"

"لأنني لم أكن متأكدة من أن الوقت قد حان. لكن بعد كل ما يحدث الآن، لم يعد بإمكاني الصمت."

الفصل الخامس والعشرون

الجريمة الرابعة والخامسة

[0]

مرّت الأسابيع التالية بسرعة مرعبة. وقعت جريمتان جديدتان، متقاربتان زمنيًا هذه المرة، بفارق أسبوع واحد فقط.

الضحية الرابعة كانت زوجة أحد أولئك التلاميذ الذين تنمّروا على عادل في طفولته، رجل كان قد انتقل إلى مدينة أخرى منذ سنوات، لكن الشبح وصل إليه هناك أيضًا، تاركاً زوجته جثة، والرمز على الحائط كالعادة.

الضحية الخامسة كانت مديرة المدرسة السابقة، المرأة التي كانت قد سحبت شكوى عادل ضد الأستاذ كريم قبل سنوات طويلة، تحت ضغط لم يعرفه أحد وقتها.

بدأ رشيد بنعلي، رغم ذكائه وخبرته الطويلة، يشعر لأول مرة في مسيرته المهنية بأنه يطارد شيئاً يفوق فهمه. كل الأدلة كانت تشير إلى عادل بلحاج، لكن كل محاولة لإثبات وجوده الجسدي في أي من مسارح الجرائم كانت تصطدم بحقيقة واحدة: شهود موثوقون رأوه في أماكن أخرى تمامًا، في الوقت نفسه الذي وقعت فيه الجرائم.

"هـذا مسـتحيل من الناحيـة الجسـدية،" قـال ياسـين، وهـو يقـارن الجـداول الزمنية. "لا يمكن لشخص واحد أن يكون في مكانين في الوقت نفسه."

"أعرف،" قـال رشـيد بصـوت متعب. "وهـذا بالضـبط مـا يقلقـني أكـثر من أي شيء آخر."

الفصل السادس والعشرون

اعتراف الدجال لنفسه

[0]

في بيته الخاص، وبينما كان الشيخ الطاهر يراقب تطور الأحداث بارتياح خفي، بدأ يشعر بأن الأمور تتجاوز سيطرته قليلاً. لم يكن يتوقع أن يتصرف القرين المنفصل بهذا القدر من الاستقلالية.

كان قد ظنّ، حين فصله عن عادل قبل سنوات، أنه سيتمكن من توجيهه بالكامل نحو هدف واحد: انتزاع قدرة هالة الخاصة، تلك التي توارثتها عائلتها منذ أجيال، والتي كان الشيخ الطاهر يطمع فيها منذ عقود.

لكن القرين، بدلاً من ذلك، بدأ يتحرك بإرادته الخاصة، منتقمًا لعادل من كل من آذاه في طفولته، وكأنه اكتسب، أثناء انفصاله الطويل، وعيًا وغضباً لم يكن الشيخ الطاهر قد قدّرهما بدقة.

"يجب أن أستعيد السيطرة قبل أن يفلت الأمر تمامًا من يدي،" همس الشيخ الطاهر لنفسه، وهو يقلبّ صفحات دفتره القديم بعصبية غير معتادة.

لم يكن يعلم أن هالة، في تلك اللحظة بالذات، كانت قد بدأت خطوتها الأولى لمواجهته.

الفصل السابع والعشرون

عادل يتذكر

[0]

في تلك الليلة، وبعد حديثه مع هالة، جلس عادل وحيدًا في شقته، محاولاً لأول مرة أن يواجه ذاكرته بدلاً من الهروب منها.

أغمض عينيه، وسمح لنفسه أن يغرق في تلك الفجوات التي تجنبها طويلاً. بدأت الصور تعود إليه، مشوشة في البداية، ثم أكثر وضوحًا: وجه الأستاذ كريم يضحك مع أولئك التلاميذ. صوت أبيه، في ليلة بعيدة، يتحدث بهمس مع شخص لا يستطيع عادل رؤيته. ثم ظلام تام، وشعور ببرودة تسري في جسده، وصوت يقول له: "سأتولى الأمر. بدلاً منك. نم فقط"

فتح عينيه فجأة، متصببّاً عرقًا باردًا.

أدرك، للمرة الأولى بوضوح تام، أن كل تلك السنوات التي ظن فيها أنه ينسى أو يحلم، لم يكن ينسى شيئاً على الإطلاق.

كان هناك من كان يتذكر بدلاً منه.

الفصل الثامن والعشرون

خيط رشيد الأخير

[0]

جمع رشيد فريقه في اجتماع طارئ بعد الجريمة الخامسة، ووضع أمامهم كل الأدلة التي تراكمت خلال الأشهر الماضية.

"لدينا خمس ضحايا، جميعهم مرتبطون بشكل مباشر أو غير مباشر بطفولة شخص واحد: عادل بلحاج،" قال رشيد. "لدينا رمز غامض يتكرر في كل مسرح جريمة. ولدينا شخص يبدو أن له حضورًا في مسارح الجرائم، لكن جسديًا يستحيل أن يكون هو الفاعل."

"ماذا تقترح إذن؟" سأل أحد الضباط.

"أقترح أننا لسنا أمام مجرم عادي،" قال رشيد بصوت هادئ لكنه ثقيل بالمعنى. "أقترح أننا أمام شيء لا يغطيه أي قانون جنائي كتبناه حتى الآن. لكن هذا لا يعني أننا سنتوقف عن التحقيق. سنواصل، بمنطق، خطوة بخطوة، حتى نصل إلى الحقيقة، مهما كانت غريبة."

نظر إلى ياسين، وأضاف بصوت أخفض: "أريد مراقبة عادل بلحاج على مـدار الساعة، من الآن فصاعدًا. إذا كـانت هنـاك جريمـة سادسـة، أريـدنا أن نكـون قريبين بما يكفي لفهم ما يحدث فعلاً، لا فقط لتوثيقه بعد فوات الأوان."

الفصل التاسع والعشرون

مواجهة هالة

[0]

ذهبت هالة إلى بيت الشيخ الطاهر في وضح النهار، حين كان بيته خاليًا من الزوار. لم تطرق الباب بأدب كما يفعل الآخرون، بل دفعته بيدها، ووجدته غير مقفل، كأن شيئاً كان ينتظر قدومها.

وجدت الشيخ الطاهر جالسًا في غرفته الخاصة، ودفتره القديم مفتوح أمامه.

"كنت أعرف أنك ستأتين يومًا ما،" قال دون أن يرفع عينيه عن الدفتر.

"لماذا فعلت هذا بابن أختي؟" سألت هالة، بصوت يهتز من الغضب المكبوت لسنوات.

أغلق الشيخ الطاهر الدفتر ببطء، ونظر إليها أخيرًا، وقد اختفت تمامًا تلك الابتسامة اللطيفة التي يرتديها أمام الناس. "لأنني احتجت إلى قوة لا أملكها، ورأيت في ذلك الطفل باباً يمكن أن يوصلني إليك أنت، لا إليه. لطالما كنت أنتِ الهدف الحقيقي، هالة، منذ أن كنا صغارًا."

"إذن كل هذا... كل هذه الجرائم... كانت لأجل الوصول إليّ؟"

"في البداية، نعم. لكن قرين ذلك الفتى تحرر من نيتي الأصلية. أصبح شيئاً لا أتحكم فيه بالكامل بعد الآن. صدقيني، لو كان بإمكاني إيقاف ما يحدث الآن، لفعلت. لم يعد الأمر يخدم مصلحتي."

نظرت إليه هالة بازدراء عميق. "ستساعدني على إصلاح هذا. الآن."

ابتسم الشيخ الطاهر ابتسامة باهتة، متعبة. "لم أعد أملك القدرة على ذلك وحدي. القرين أقوى مما صنعته، هالة. لقد صار شيئاً آخر تمامًا، حين اتحد بغضب ذلك الفتى وألمه طوال سنوات."

الفصل الثلاثون

ما قاله القرين

[0]

في تلك الليلة، ولأول مرة بوضوح تام، سمع عادل صوتاً داخل رأسه لا يشبه أفكاره الخاصة، صوتاً هادئاً، باردًا، لكنه ليس معاديًا له بالضرورة.

".أنت تسمعني أخيراً،" قال الصوت

جلس عادل على حافة سريره، مرتجفًا، لكنه لم يهرب هذه المرة. "من أنت؟"

"أنا جزء منك، انتزُع مني حقيّ في أن أكون جزءاً منك منذ زمن طويل. أنا لست شيطاناً كما تظن الحكايات، ولست شراً خالصًا. أنا. فقط... ما تبقى من غضبك الذي لم تسمح لنفسك يوماً أن تشعر به"

"الجرائم... أنت من فعلها؟"

"نحن من فعلها. أنت وأنا، وإن كنت لا تتذكر. كل من مات، آذاك بطريقة ما، أو سمح بأذاك، أو صمت وهو يرى أذاك. لم أخترهم. عشوائياً"

شعر عادل بغثيان حقيقي. "يجب أن نتوقف. الآن."

ساد صمت طويل قبل أن يجيب الصوت: "أنا مستعد لذلك... إذا كنت مستعداً أنت أيضًا لمواجهة الحقيقة كاملة. لا يمكنك أن توقفني دون. أن تعرف أولاً من أنت حقاً، ومن كان والدك، ولماذا اختفى"

الفصل الحادي والثلاثون

قرار عادل

[0]

في صباح اليوم التالي، ذهب عادل إلى بيت هالة، ووجدها منهكة من مواجهتها مع الشيخ الطاهر في اليوم السابق. أخبرته بكل شيء دون تردد هذه المرة: عن الدجال، وعن نيته الأصلية، وعن استحالة السيطرة الكاملة على القرين الآن.

استمع عادل بهدوء غريب، وكأن جزءًا منه كان يعرف هذا بالفعل.

"إذن لا يمكن إيقاف هذا من الخارج،" قال أخيرًا.

"ليس بسهولة. ربما ليس على الإطلاق، إن استمر الأمر على هذا الحال."

نظر عادل إلى يديه طويلاً، ثم رفع عينيه إلى خالته بقرار واضح في نظراته. "سأسلمّ نفسي للشرطة."

"عادل، هذا لن يوقف القرين. أنت تعرف ذلك."

"ربما لا. لكنني الشخص الوحيد الـذي قـد يسـتطيع مواجهتـه وجهًـا لوجـه، إن جاز التعبير. وأريد أن يعرف المحقق الحقيقة كاملة، حتى لـو لم يصـدقها في البداية. لا أستطيع أن أترك الأمر يستمر وأنا أعرف الآن ما أعرفه."

الفصل الثاني والثلاثون

التسليم

[0]

في مركز الشرطة، وبينما كان رشيد بنعلي يراجع ملفات القضية للمرة المئة تقريباً، دخل عادل بلحاج من الباب الرئيسي، هادئاً تمامًا، وطلب من الشرطي عند الاستقبال أن يخبر المفتش رشيد بأنه يريد الاعتراف.

جلس رشيد أمامه في غرفة الاستجواب، متفاجئاً من هذا التحول المفاجئ، لكنه لم يُظهر ذلك على وجهه.

"أخبرني كل شيء،" قال ببساطة.

بدأ عادل حديثه، وروى كل شيء: القرين، الدجال، الليلة التي انفصل فيها عنه وهو طفل بعد اختفاء والده، والجرائم التي لم يكن يتذكرها بوضوح لكنه كان يشعر بأثرها كل مرة.

استمع رشيد بصمت تام، دون أن يقاطعه ولو مرة واحدة. لم يكن يصدق كل التفاصيل الخارقة، لكنه كان يعرف، من خبرته الطويلة، أن هذا الشاب لم يكن يكذب، على الأقل ليس بالمعنى المعتاد للكذب.

"لماذا تسلمّ نفسك الآن؟" سأل رشيد أخيرًا. "لو كان كـل مـا تقولـه صـحيحًا، لن يوقفك السجن."

نظر عادل إليه بعينين مليئتين بحزن عميق. "لأنـني تعبت من الهـروب من نفسي، سـيدي المفتش. وربمـا، إن كنت قريبـاً بمـا يكفي مـني، يمكنـك أن تساعدني في إيجاد طريقة لإنهاء هذا، من الداخل."

الفصل الثالث والثلاثون

إعادة قراءة الماضي

[0]

بعد اعتراف عادل، عاد رشيد إلى كل ملاحظاته القديمة، وبدأ يعيد قراءتها بعين جديدة تمامًا.

تذكر الكرشي المُدار نحو الباب في الجريمة الأولى: ربما كان الأستاذ كريم قد رأى شيئاً حقيقيًا يدخل، شيئاً لم يكن عادل نفسه واعيًا لوجوده في تلك اللحظة.

تذكر الظل الغريب في تسجيل المراقبة الأول، والشكل غير المكتمل في تسجيل الجريمة الثالثة: لم تكن أعطالاً في الكاميرات، بل كانت لحظات حقيقية لظهور جزئي لكيان لا يخضع تمامًا لقوانين الفيزياء المعتادة.

تذكر جملة قالها عادل في أول استجواب، حين سُئل عن مشاكل نومه: "لا أعرف لماذا أستيقظ متعباً كأنني لم أنم إطلاقًا." كانت تلك الجملة، في حينها، تبدو تفصيلاً عابرًا. الآن، بدت له مفتاحًا كاملاً كان أمام عينيه طوال الوقت.

أدرك رشـيد أن القضـية لم تكن أبـدًا، منـذ البدايـة، عن "من قتـل هـؤلاء الأشخاص؟" بل كانت، بعمق أكبر بكثير، عن سؤال أصعب: من كان الضحية الحقيقية طوال هذه القصة؟

الفصل الرابع والثلاثون

زيارة في الزنزانة

[0]

بعد أيام من احتجاز عادل، رغم عدم وجود تهمة رسمية قابلة للإثبات القانوني بعد، طلب رشيد استثناءً خاصًا لإبقائه تحت المراقبة الوثيقة. في تلك الليلة، جاءت هالة لزيارته، حاملة معها قطعة القماش المطرزة نفسها التي استخدمتها سابقًا.

"يجب أن نتحدث معه مباشرة،" قالت لعادل عبر قضبان الزنزانة، بصوت خافت حتى لا يسمعها الحارس. "القرين. أريد أن أفهم ماذا يريد بالضبط، قبل أن نقرر كيف نتصرف."

أغمض عادل عينيه، وسمح للصوت بالظهور مجددًا.

"هالة،" قال الصوت من فم عادل، لكن بنبرة مختلفة تمامًا عن نبرته المعتادة. "مرّ وقت طويل."

ارتجفت هالة قليلاً، لكنها لم تتراجع. "ماذا تريد الآن، بعد كل هذا؟"

"أريد ما كان يجب أن يكون لي منذ البداية: أن أكون جزءاً من هـذا الشـاب، لا منفصلاً عنـه. الـدجال أخـذني بـالقوة، وحين تحـررت جزئيـاً من سـيطرته، وجدت نفسي غاضباً لدرجة لم أستطع السيطرة عليها. لسـت نادمـاً على كـل من مات، لكنني أدرك الآن أن هذا لن يعُيد لعادل طفولته. المسروقة"

"هل يمكن أن تعود إليه؟ أن تندمجا من جديد كما ينبغي؟"

"ربما. لكن الاندماج لن يكون بسيطًا. حين نتحد، لن يكون عادل كما. كـان، ولن أكون أنا كما كنت. سنصبح شيئاً واحداً، مختلفاً عن كلينا"

نظرت هالة إلى عادل، الـذي فتح عينيـه في تلـك اللحظـة، عائـدًا إلى وعيـه الكامل. "هل سمعت كل هذا؟" سألته.

هزّ رأسه بإيجاب صامت. "سمعت كل كلمة. وأنا مستعد."

الفصل الخامس والثلاثون

الليلة الأخيرة للدجال

[0]

علم الشيخ الطاهر، من خلال شبكة معارفه الخاصة، بما كان يحدث في الزنزانة. أدرك أن الأمور تفلت من يده بشكل نهائي، وأن هالة والقرين المتحرر قد يتحدان ضده إن لم يتصرف بسرعة.

في تلك الليلة، حاول تنفيذ طقس أخير، محاولة يائسة لاستعادة السيطرة على القرين من مسافة بعيدة، مستخدمًا الدفتر القديم وصفحاته التي حملت اسم هالة لعقود.

لكن شيئاً حدث لم يتوقعه: بمجرد أن بدأ الطقس، شعر بحضور ثقيل يقترب منه بسرعة، أثقل بكثير مما كان يتذكره من القرين الذي فصله قبل سنوات طويلة.

لم يستطع أحد، لا الشرطة ولا حتى هالة، تفسير ما حدث بالضبط في تلك الليلة داخل بيت الشيخ الطاهر. عُثر عليه في صباح اليوم التالي، جالسًا في غرفته، حيًا لكن صامتًا تمامًا، عاجزًا عن النطق بأي كلمة منذ تلك اللحظة،

وعيناه مثبتتان على نقطة فارغة في الهواء، كأنه يـرى شـيئاً لن يتوقـف عن رؤيته أبدًا.

لم يُتِّهم رسميًا بأي شيء، إذ لم يكن هناك دليل قـانوني يربطـه بـأي جريمـة. لكن من عرفوه سابقًا كرجـل دين محـترم، لاحظـوا أن بيتـه أُغلـق إلى الأبـد بعد تلك الليلة، وأن لا أحد تجرأ على السؤال عمّا حدث بالضبط بداخله.

الفصل السادس والثلاثون

الاندماج

[0]

في الزنزانة، وبموافقة صامتة من الجميع - هالة، ورشيد الذي راقب المشهد بذهول رجل عقلاني يواجه ما يتجاوز كل ما تعلمه في حياته المهنية - سمح عادل لنفسه أخيرًا بمواجهة قرينه وجهًا لوجه، لا كصوت في رأسه، بل كحضور كامل.

لم يرَ رشيد وياسين، الواقفان خارج الزنزانة، أي شيء غريب بالعين المجردة. فقط عادل، جالسًا وحيدًا، عيناه مغمضتان، يتنفس بعمق شديد لدقائق طويلة.

لكن هالة، التي كانت الوحيدة القادرة على "رؤية" ما كان يحدث فعلاً، شهدت شيئاً لن تنساه: ظلاً كان يحوم حول عادل منذ سنوات دون أن يراه أحد، يقترب منه ببطء، ثم يذوب فيه تمامًا، كقطرتي ماء تلتقيان لتصبحا واحدة.

حين فتح عادل عينيه أخيرًا، كان هناك شيء مختلف في نظرته. ليس شرًا، وليس خيرًا خالصًا، بل توازناً غريباً لم يكن موجودًا فيه من قبل.

"هل انتهى الأمر؟" سأل رشيد بحذر.

نظر إليه عـادل طـويلاً قبـل أن يجيب. "لا أعـرف إن كـان قـد انتهى تمامًـا. لكنني، للمرة الأولى منذ اثنتي عشرة سنة، أشعر أنني كامل. أنا وهو معًا الآن، لا منفصليَن."

الفصل السابع والثلاثون

ما قاله عادل أخيرًا

[0]

في جلسة استجواب أخيرة، سُجّلت رسميًا هذه المرة، أدلى عادل باعترافه الكامل، موضحًا لماذا اختير كل ضحية، وفي أي لحظة بالضبط.

الأستاذ كريم، لأنه شهد التنمر وشجّعه بصمته وضحكاته. سمير قاسمي، الحارس الليلي، لأنه رأى ذات ليلة، قبل سنوات، ما حدث لوالد عادل، وصمت مقابل مبلغ من المال دفعه الشيخ الطاهر له. نادية شرقاوي، المديرة، لأنها سحبت الشكوى الوحيدة التي كان يمكن أن تحمي عادل، تحت تهديد لم تفُصح عنه لأحد. زوجة أحد المتنمرين، لأن زوجها كان قد فرّ إلى مدينة أخرى ظاناً أنه نجا من الحساب، فدفعت هي ثمن غيابه بطريقة لم يكن القرين ليتنازل عنها.

كل جريمة، كما اتضح، كانت مرتبطة بخيط واحد: لحظة صمت، أو تواطؤ، أو خيانة، ساهمت جميعها في صناعة الطفل المكسور الذي أصبح لاحقًا نصف كيان لا يمكن لأي قانون بشري أن يحاكمه بعدالة كاملة.

لم يُصــدر القاضي، في نهايــة المطــاف، حكمًــا تقليــديًا. اعتُــبرت الحالــة "اسـتثنائية"، واسـتقر الأمـر على احتجـاز عـادل في منشـأة خاصـة للمراقبـة النفسية والطبية، تحت إشراف مباشر من رشيد بنعلي نفسه، الـذي طلب أن يكون هو المسؤول عن متابعة الملف حتى النهاية.

الفصل الثامن والثلاثون

بعد سنة

[0]

بعد مرور سنة كاملة، زار رشيد بنعلي عادل بلحاج للمرة الأخيرة قبل تقاعده من الخدمة.

وجده هادئاً، مستقرًا أكثر مما كان يتخيل أي شخص أن يكون بعد كل ما مـرّ به. لم تقع أي جريمة جديدة تحمل الرمز ☣ منذ تلك الليلة في الزنزانة.

"هل ما زلت تسمعه؟" سأل رشيد.

ابتسم عادل ابتسامة هادئة، مختلفـة تمامًـا عن ابتسـامته المتـوترة في بدايـة القضية. "لم أعد أسمعه كصـوت منفصـل، سـيدي المفتش. أصـبح جـزءًا مـني، كما ينبغي أن يكون منذ البداية. أحياناً لا أعرف بالضـبط أين تنتهي أفكـاري وتبدأ أفكاره. لكنني لم أعد خائفًا من ذلك."

نظر رشيد إليه طويلاً، متذكرًا كل التفاصيل الصغيرة التي جمعها طوال أشـهر التحقيق: الكرشي المُدار، الظل في التسجيل، الرمز الغـامض، وسـؤالاً واحـدًا ظل عالقًا في ذهنه حتى هذه اللحظة الأخيرة.

"سؤال أخير، عادل. طوال هذا الوقت... من كان يحكي لي هذه القصة فعلاً؟ أنت، أم هو؟"

اتسعت ابتسامة عادل قليلاً، بطريقة لم يستطع رشيد تفسيرها تمامًا. "ربما، سيدي المفتش، لم يكن هناك فرق حقيقي بيننا منذ البداية. ربما كنتما تطاردان شبحًا واحدًا، ظنّ كل واحد منكما شيئاً مختلفًا."

خرج رشيد من تلك الزيارة بشعور غريب لم يفارقه لبقية حياته: أنه، رغم حلّ للقضية على الورق، لم يكن متأكدًا أبدًا من أنه فهم الحقيقة كاملة.

وأن "الملف صفر"، رغم إغلاقه رسميًا، سيبقى، في مكان ما من ذاكرته، مفتوحًا إلى الأبد.

تمّت الرواية.